القرآن محور النشاط الفكري

الأستاذ الدكتور محمد عثمان شبير

بحث نشر في كتاب

"رسالة القرآن"

بمشاركة نخبة من الباحثين والكتاب

وتنسيق إدارة البحوث والدراسات الإسلامية بوزارة الأوقاف
والشؤون الإسلامية بدولة قطر

الطبعة الأولى ربيع الأول 1431هـ - شباط (فبراير) 2010م

أعيد نشره إلكترونيا رمضان 1439 هـ / 2018م

القرآن محور النشاط الفكري

الدكتور محمد عثمان شبير (*)

بيّن القرآن مقومات وجود الحضارة الصالحة وهي: توافر الناحية المادية من بيئة صالحة، واقتصاد قوي، ووجود نظام سياسي، ووجود الناحية المعنوية من إيمان بالله، وأخلاق فاضلة، وقيم معتدلة؛ كما بيّن أسباب اندثار الحضارات من طغيان الجانب المادي، والغرور الفكري والمادي.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين.. وبعد:

فإن نزول القرآن الكريم على نبينا محمد ﷺ يعدُّ من أجلِّ نعم الله تعالى على الناس؛ فهو نور الأبصار والبصائر، وهو طريق الهداية إلى الله تعالى؛ يهدي

(*) باحث أكاديمي، كلية الشريعة، جامعة قطر.

به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، ويُخرج من سار على دربه من الظلمات إلى النور، وهو ينبوع العلوم الدينية والدنيوية، فمن أراد الحصول على السلام، والظفر بالحقيقة، والإطلاع على كليات الشريعة ومقاصدها فعليه بتدبر القرآن وفهمه. لكن هذا الفهم لا يتحقق إلا بالنظر في السنة النبوية؛ لأنها المفصلة والمبينة له، وهي الراجعة في معناها إليه.

فمن الشواهد على تبيين السنة للكتاب قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل:44)، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (النحل: 64)، وقوله ﷺ: «**أَلا إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ**»(1).. ومما يدل على رجوع السنة إلى القرآن أنه لا يوجد في السنة أمر؛ إلا والقرآن قد دلَّ على معناه دلالة إجمالية أو تفصيلية. فخلق الرسول ﷺ الذي وصفه الله بالعظيم في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم:4) قالت عنه أم المؤمنين، السيدة عائشة، رضي عنها: «إن خلقه القرآن»، فدلَّ على أن قوله وفعله وإقراره راجع إلى القرآن والوحي. فلا يستُغنى عن السنة في فهم القرآن.

فما حقيقة هذا القرآن؟ وما الأدلة على مصدريته؟ وما أثار هذه المصدرية في النشاط الفكري للإنسان؟

هذا ما سأجيب عنه، إن شاء الله تعالى، في هذا البحث.

وفيما يلي بيان لذلك:

---

(1) مسند أحمد بن حنبل، رقم: (17305) وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح ورجاله ثقات.

المبحث الأول

حقيقة القرآن الكريم

سوف يخصص هذا المبحث لبيان معنى القرآن، وأسمائه، وخصائصه. وفيما يلي بيان ذلك:

أولاً: تعريف القرآن الكريم:

القرآن في اللغة: مصدر قرأ، وهو في الأصل يدل على الجمع والضم، ثم اكتسب هذا اللفظ معنى الإظهار والبيان، ثم تخصص بمعنى التلاوة والترتيل لما فيهما من الإظهار والتبيين. ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ (القيامة:17- 18)، ثم نقل لفظ القرآن من المعنى المصدري، وجعل علماً على كلام الله تعالى المنزل على سيدنا محمد ﷺ المعجز؛ من باب إطلاق المصدر على مفعوله[1]، وهو في **الاصطلاح:** «كلام الله المنزل على سيدنا محمد ﷺ، المكتوب في المصاحف، المبدوء بسورة الفاتحة والمختوم بسورة الناس، المنقول إلينا بالتواتر، المتعبد بتلاوته، المعجز بأقصر سورة منه»[2].

ثانياً: أسماء القرآن الكريم:

سُمي القرآن بأسماء كثيرة، ووصف بصفات أكثر؛ منها: القرآن، والكلام، والنور، والهدى، والرحمةً، والفرقان، والشفاء، والموعظة،

---

(1) انظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ص852.

(2) انظر: الزرقاني، مناهل العرفان، 1/15-16.

والذكر، والمبارك، والعلي، والحكمةً، والحكيم، والمصدق، والمهيمن، والحبل، والصراط، والمستقيم، والقيم، والقول، والفصل، والنبأ العظيم، وأحسن الحديث، والمتشابه، والمثاني، والتنزيل، والروح، والوحي، والعربي، والبصائر، والبيان، والعلم، والحق، والهدي، والعجب، والتذكرة، والعروة الوثقى، والصدق، والعدل، والأمر، والمنادي، والبشرى، والمجيد، والنور، والبشير، والنذير، والعزيز، والبلاغ، والقصص، والصحف المكرمة، والمرفوعة، والمطهرة[1]. وهذه الكثرة إن دلت على شيء فهي تدل على شرف المسمى، أو كماله في أمر من الأمور، أما ترى أن كثرة أسماء الأسد؛ دلت على كمال قوته، وكثرة أسماء القيامة؛ دلت على كمال شدتها وصعوبتها، وكذلك كثرة أسماء الله تعالى دلت على كمال جلال عظمته، وكثرة أسماء النبي ﷺ دلت على علو رتبته وسمو درجته، وكذلك كثرة أسماء القرآن دلت على شرفه وفضيلته. وفيما يلي بيان لبعض الأسماء[2]:

1- الكتاب: دل عليه قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: 1- 2).. وسمي بذلك، لأنه مدون في الصحف.

2- الفرقان: دل عليه قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الفرقان:1)، وسمي بذلك، لأنه فرّق بين الحق والباطل، والصدق والكذب، والصالح والطالح.

---

(1) الزرقاني، مناهل العرفان، 1/18-20.

(2) مجد الدين الفيروزأبادي، بصائر ذوي التمييز، 1/99.

3- الذكر: **دلَّ عليه قوله تعالى:** ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: 9)، سمي بذلك؛ لما له من مكانة ومنزلة عند الناس فهم يذكرونه، أو لأنه يذكّر الناس بربهم.

4- **المصحف**: أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ (عبس:11- 16)، سمي بذلك؛ لأنه مدون في صحف.

ثالثاً: خصائص القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (المائدة:15- 16)، فقد وصف الله تعالى القرآن بعدة صفات وخصه بعدة خصائص[1] نذكر منها:

1- إنه وحي أنزله الله تعالى بمعانيه وألفاظه العربية على رسول الله ﷺ. قال تعالى فيه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ (النجم:4)، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف:203)، وقال تعالى في لغته: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ (الشعراء:192- 195)، وقال تعالى: ﴿وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ (النحل:103)، وهو بذلك يختلف عن الكتب السماوية السابقة: كالتوراة، والإنجيل؛ لأنها نزلت بغير العربية. كما أنه يختلف عن الأحاديث النبوية؛ لأن

(1) انظر: الشيخ محمد أبو زهرة، المعجزة الكبرى،ص 61، وما بعدها؛ القرضاوي، كيف نتعامل مع القرآن، ص17، وما بعدها.

معانيها ملهمة للرسول ﷺ من الله، ويعبر عنها الرسول ﷺ بألفاظ من عنده(1).

2- وهو مصون من التحريف والتبديل، إذ نقل بطريق التواتر الذي يفيد قطعية الثبوت، حيث نقله عن الرسول ﷺ جموع من الصحابة يستحيل تواطؤهم على الكذب أو الوهم أو الخطأ، ونقله عن هذه الجموع جموع أخرى يستحيل تواطؤهم على الكذب. وهكذا تم نقله في كل عصر حتى وصل إلينا مكتوباً في المصاحف محفوظاً في الصدور بلا تحريف ولا تبديل. وهو مما تكفل الله بحفظه، وصدق الله إذ قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر:9)، أما الكتب السماوية السابقة فلم تسلم من التحريف والتبديل وانقطاع السند(2)؛ لأن الله لم يتكفل بحفظها، بل وكَل حفظها للناس من الأحبار(3). ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ (المائدة:44).

3- وهو متعبد بتلاوته في الصلوات وغيرها؛ لما روي عن ابن مسعود، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لا أَقُولُ (ألم) حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلامٌ حَرْفٌ**»(4). وهو بذلك يختلف عن الأحاديث النبوية والقدسية.

---

(1) مالك بن نبي، القرآنية الظاهرة، ص139.

(2) انظر: الظاهرة القرآنية؛ وعلاء الدين المدرس، العقل: دراسة مقارنة للكتب المقدسة، ص11، وما بعدها.

(3) دراز، النبأ العظيم، ص 13؛ والظاهرة القرآنية، ص 101.

(4) سنن الترمذي، كتاب فضائل القرآن، باب من قرأ حرفا، (2910) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه.

4- وهو معجزة لغوية، وعلمية، وتشريعية، وغيبية للبشر على مر العصور، ففي مجال الإعجاز اللغوي أفحم القرآن الفصحاء، وأعجز البلغاء أن يأتوا بمثله، ولو اجتمعوا، وكان بعضهم لبعض ظهيراً[1]. قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء: 88)، وهو بذلك لم يخرج عن كونه عربياً جارياً على أساليب كلام العرب، وهو ميسر للفهم وإدراك معانيه لمن يملك الملكة اللغوية. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ (القمر:17).

5- وهو شامل لكل قضايا الدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل: 89)، فقد جعل الله تعالى القرآن منهاج حياة كاملة دون أن تتعارض جزئية واحدة من ذلك المنهاج مع جزئية أخرى؛ قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود: 1)، كما أن هذه الجزئيات تنسجم مع الفطرة الإنسانية ولا تصطدم واحدة منها معها، أو تقصر عن تلبيتها.

6- وهو خاتم الرسالات السماوية المنزلة إلى الأرض، فليس بعده كتاب أنزل؛ لأنه بنزول آخر آية فيه اكتمل الدين، وانقطع الوحي. قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ (المائدة: 3)، قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: «هذه أكبر نعم الله، عز وجل، على هذه الأمة، حيث أكمل تعالى لهم دينهم، فلا يحتاجون إلى دين غيره، ولا إلى نبي غير نبيهم، صلوات الله وسلامه عليه؛ ولهذا جعله الله خاتم الأنبياء»[2].

---

(1) دراز، النبأ العظيم، ص 79، وما بعدها.

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 13/2.

7- وهو كتاب الله الخالد، الباقي إلى آخر الزمان، أنزله الله ليكون مناراً ومرجعاً للأجيال المتعاقبة، ولا يختص بجيل نزوله أو بفترة معينة. ولا يرفع من الأرض إلا في آخر الزمان عند قيام الساعة؛ وبعد مجيء العلامات الكبرى التي تعقبها الساعة مباشرة مثل: طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدجال، ونزول عيسى عليه السلام، وخروج الدابة؛ كما قال السيوطي. ومما يؤيد ذلك: طبيعة آياته وما تحويه من العقائد الصحيحة، ومكارم الأخلاق، والتشريعات المتعددة المجالات والمنسجمة مع الفطرة الإنسانية، والصالحة لترتيب شؤون الإنسان وتنظيم علاقاته مع الآخرين. ومما يؤيد ذلك أيضاً: ما رُوي عن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**أَلا إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ**»؛ فقلت: ما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: «**كِتَابُ اللَّهِ، فِيهِ نَبَأُ مَا كَانَ قَبْلَكُمْ، وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ، وَهُوَ الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللَّهُ، وَمَنِ ابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ، وَهُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ، وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، هُوَ الَّذِي لا تَزِيغُ بِهِ الأَهْوَاءُ، وَلا تَلْتَبِسُ بِهِ الأَلْسِنَةُ، وَلا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، وَلا يَخْلَقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، هُوَ الَّذِي لَمْ تَنْتَهِ الْجِنُّ إِذْ سَمِعَتْهُ حَتَّى قَالُوا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾، مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هَدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ...**»[1].

8- وهو المصدق والمهيمن لما قبله من الرسالات السماوية السابقة، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ (المائدة:48).

(1) سنن الترمذي، كتاب فضائل القرآن، باب من قرأ حرفا، (2906) وقال: هذا حديث غريب من هذا الوجه.

9- وهو كتاب عالمي النزعة، حيث إنه جاء ليخاطب بتكاليفه العقائدية والأخلاقية والتشريعية جميع الناس، من عرب وعجم، وممن اعتنقوا رسالة سماوية سابقة، وممن لم يعتنقوا، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ (سبأ:28)، وقال: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ (الأعراف: 158)، وقال ﷺ: «**كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ**»(1)، وقال ﷺ: «**وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً، وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ**»(2).

10- وهو كتاب هداية للإنسان؛ يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام.. السلام الغائب في هذه الأيام. قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا﴾. فهداية القرآن للإنسان شاملة لكل ما يحتاج إليه في الدنيا والآخرة. وهي من شأنها أن تربط بين العقيدة والعمل، وبينها وبين النظام، وهي تحرر العقل من الوهم والخرافة، وهي تقدم للإنسان عبادة متوازنة بعيدة عن التكاليف الشاقة، التي تعمل على تعذيب الجسم، وبعيدة عن التكاليف السهلة التي تشيع في النفس الاستهتار وعدم المبالاة. وهي تقدم له شريعة تتسم بالوسطية؛ بعيدة عن التطرف، والتأثر بالهوى والمصلحة الشخصية.

وفي الجملة، فهي هداية تدفع الطاقات البشرية الصالحة للعمل والعطاء والبناء.

---

(1) صحيح مسلم ، كتاب المساجد، باب ابتناء مسجد النبي، رقم: (521).

(2) المرجع السابق رقم: (523).

المبحث الثاني
الأدلة على مصدرية القرآن

لم يتعرض كثير من علماء الأصول القدامى للأدلة على مصدرية القرآن الكريم أو حجيته؛ باعتبار أنها كانت في عصرهم بدهية، ومعلومة من الدين بالضرورة[1]، لكن وجد في هذا العصر من أشار إليها، وأبرز بعض الأدلة[2]؛ وذلك لتغير اهتمامات الناس واختلاف عصورهم. ونحن سنذكر هذه الأدلة بشيء من التفصيل في القرآن، والسنة، والآثار، والإجماع، والمعقول. وفيما يلي بيان ذلك:

أولاً: فمن القرآن وردت عدة آيات منها قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف:40)، فهي تقرر أن الله تعالى هو مصدر التشريع والحكم والتصرف والمشيئة. وهي مقصورة عليه بحكم ألوهيته. إذ الحاكمية أولى خصائص الألوهية. فكل من ادعى أن له الحق في التشريع والحكم؛ سواء أكان فرداً، أم جماعة فقد نازع الله سبحانه أولى خصائص ألوهيته[3]؛ ولأن العبادة أو الدينونة لا تكون إلا لله وحده، سواء تعلقت بشعيرة تعبدية، أو بتوجيه أخلاقي، أو بشريعة قانونية. وهذا هو الدين القيم

(1) انظر: البابرتي، التقرير لأصول البزدوي ، 130/1.

(2) انظر: خلاف، علم أصول الفقه، ص24؛ وبدر المتولي، تيسير أصول الفقه، ص108؛ والزحيلي، أصول الفقه، ص24.

(3) انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، 4/ 309.

الذي دعانا إليه الله سبحانه وتعالى، ولكن أكثر الناس لا يعلمون بحقيقة هذا الأمر.

ثانياً: وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ الْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۗ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾ ۞ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ (الأنعام: 56- 59)، فالخطاب في هذه الآيات موجه إلى الرسول ﷺ؛ بعد أن عرض عليه المشركون أن يوافقهم على دينهم، فيوافقوه على دينه! وأن يسجد لآلهتهم، فيسجدوا لإلهه!. فطلب الله منه: أن يواجه هؤلاء المشركين، ويفاصلهم في ذلك الأمر الذي لا يقبل المساومة، وأمره بأن ينتهي عن عبادة الذين يدعونهم من دون الله، ويتخذونهم أنداداً لله؛ لأن ذلك لا يصدر من المشركين إلا عن الهوى، ومن يفعل ذلك فقد ضل ولا يهتدي(1).

ثالثاً: وقال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ﴾ (البقرة:213)، هذه الآية تقرر حقيقة أساسية؛ وهي تحديد جهة تلقى الناس تصوراتهم ومناهجهم وقيمهم وشرائعهم التي تفصل بينهم في كل ما يشجر

(1) انظر: تفسير ابن كثير،3 / 264؛ سيد قطب، في ظلال القرآن، 3 / 55.

بينهم من خلاف في شتى صور الخلاف الذي هو من طبيعة البشر. هذه الجهة هي جهة واحدة، لا تتعدد؛ وهو الله سبحانه وتعالى الذي أنزل الكتاب بالحق على رسله؛ وهي في الأصل واحدة لا تتعدد لكن الكتب السماوية السابقة امتدت إليها يد التحريف والتزييف، ولا يمثل هذه الجهة اليوم إلا القرآن الكريم الذي تكفل الله بحفظه. وأما ما عداه من الكتب السابقة فهي محرفة، واختلطت فيها كلمات الله تعالى بأقوال الناس وتصوراتهم ومناهجهم وقيمهم وموازينهم. فلا حق فيها، ولا تستقيم بها الحياة؛ ولا ينتهي الناس بها مما حلَّ بهم من خلاف وفرقة؛ ولا يقوم بها على الأرض السلام[1].

رابعاً: وقال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ (البقرة:285) قال ابن كثير في بيان معنى قوله ﴿سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ﴾: «سمعنا قولك يا ربنا، وفهمناه، وقمنا به، وامتثلنا العمل بمقتضاه»[2]. ويتجلى في ذلك: السمع لكل ما جاء الناس من عند الله، والطاعة لكل ما أمر به الله. فهو إفراد الله بالسيادة والحاكمية، والتلقي منه في كل أمر؛ كما بينا من قبل. فلا إسلام بلا طاعة لأمر الله، وإنفاذ لنهجه في الحياة. ولا إيمان لمن أعرض عن أمر الله في الكبيرة والصغيرة من شؤون الحياة، وأنكره؛ أو أقر بغير شريعته، أو تلقى تصوراته عن غير الله في

(1) سيد قطب، في ظلال القرآن،194/1.

(2) تفسير ابن كثير،729/1.

الخلق والسلوك والاجتماع والاقتصاد والسياسة. فالإيمان ما وقر في القلب، وصدقه العمل. والمنطق السليم يقتضي أن ترجع الأحكام والتصورات إلى مصدر ثابت لا يميل مع الهوى حيث مال، ولا تغلبه النزوة، ولا يتأرجح مع الرضى والغضب، والصحة والمرض، والنزوة والهوى[1].

خامساً: وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (النساء: 65)، فإذا حكم الله ورسوله في أي أمر من الأمور؛ فليس لأحد مخالفته، ولا اختيار له، وإنما عليه تنفيذه والتسليم به. قال سيد قطب: «فقد جاء كل دين من عند الله ليكون منهج حياة. منهج حياة واقعية. جاء الدين ليتولى قيادة الحياة البشرية، وتنظيمها، وتوجيهها، وصيانتها. ولم يجيء دين من عند الله ليكون مجرد عقيدة في الضمير؛ ولا ليكون كذلك مجرد شعائر تعبدية تؤدى في الهيكل والمحراب»[2].

سادساً: وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (النور: 51)، فقد أخبر تعالى عن صفة من صفات المؤمنين المفلحين، وهي الاستجابة لله ولرسوله، فهم لا يبغون دينًا سوى كتاب الله وسنة رسوله، ويؤكدون ذلك بقولهم: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ﴾[3]؛ وذلك لأن حكم الله هو الحكم العادل والمبرأ من مظنة الحيف.

---

(1) سيد قطب، في ظلال القرآن، 61/1.

(2) سيد قطب، في ظلال القرآن، 373/2.

(3) تفسير ابن كثير، 75/6.

فلا يظلم أحداً، ولا يحابي أحداً، وكل خلقه أمامه سواء. أما حكم غير الله من البشر فهو مظنة الحيف؛ فهم لا يملكون أنفسهم، وهم يشرعون ويحكمون؛ أن يميلوا إلى مصالحهم. سواء أكانوا أفراداً، أم طبقة، أم دولة. وحين يشرع الفرد أو يحكم؛ فلا بد أن يلحظ في ذلك حماية نفسه وحماية مصالحه. وكذلك حين تشرع طبقة لطبقة، وحين تشرع دولة لدولة. أو كتلة من الدول لكتلة. فأما حين يشرع الله فلا حماية ولا مصلحة. إنما هي العدالة المطلقة، التي لا يطيقها تشريع غير تشريع الله، ولا يحققها حكم غير حكمه. من أجل ذلك كان الذين لا يرتضون حكم الله ورسوله هم الظالمون، الذين لا يريدون للعدالة أن تستقر؛ ولا يحبون للحق أن يسود[1].

سابعاً: ومن السنة قول الرسولﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئتُ به**»[2]. فلا يؤمن أحدكم: الإيمان الكامل، الذي وعد الله أهله بدخول الجنة، والنجاة من النار، حتى تكون نصوص هذه الشريعة المطهرة الكاملة من قرآن وسنة مقدمة على الرأي والهوى، وما تميل إليه النفس.

ثامناً: ومن الآثار ما رُوي عن عُبَادة بن الصامت، رضي الله عنه، أنه لما حضره الموت قال لابن أخيه جنادة بن أبي أمية: «ألا أنبئك بماذا عليك وَمَاذا لك؟ قال: بلى. قال: فإن عليك السمع والطاعة، في عسرك ويسرك،

---

(1) سيد قطب، في ظلال القرآن، 290/5.

(2) ابن بطة، الإبانة الكبرى، 1 / 298. وقال ابن حجر في الفتح (ج 20 / ص 364): أخرجه الحسن بن سفيان وغيره، ورجاله ثقات، وقد صححه النووي في آخر الأربعين.

ومَنْشَطك ومكرهك، وأثرةً عليك. وعليك أن تقيم لسانك بالعدل، وألا تنازع الأمرَ أهله، إلا أن يأمروك بمعصية الله بَوَاحاً، فما أمرت به من شيء يخالف كتاب الله، فاتبع كتاب الله» (1).

تاسعاً: ومن الإجماع ما ذكره القرطبي: «وعلى الجملة فقد حصل العلم القطعي، واليقين الضروري، وإجماع السلف والخلف على أن لا طريق لمعرفة أحكام الله تعالى التي هي راجعة إلى أمره ونهيه، ولا يعرف شيء منها إلا من جهة الرسل، فمن قال: إن هناك طريقاً آخر يُعرَف بها أمرُه ونهيُه غيرَ الرسل بحيث يستغنى عن الرسل فهو كافر، يُقتل ولا يستتاب، ولا يحتاج معه إلى سؤال ولا جواب» (2).

عاشراً: ومن المعقول أن القرآن هو الكتاب الوحيد الذي ظل سليماً وخالياً من أي تحريف أو تبديل. ويشهد لذلك إعجازه البياني. فبالرغم من أن هذا القرآن قد تعرض في زمن الفتن ونشوء الفرق لمحاولات التحريف والتغيير؛ لتثبت كل فرقة دعواها، إلا أن نصوصه ظلت محفوظة كما أنزلها الله؛ حجة باقية، ومعجزة خالدة، يتحدى ببيانه البلغاء والفصحاء (3).

---

(1) تفسير ابن كثير، 75/6.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 1/ 3456.

(3) سيد قطب، في ظلال القرآن، 421/4.

المبحث الثالث

آثار مصدرية القرآن الكريم في النشاط الفكري

شهد العالم بنزول القرآن الكريم تحولاً هائلاً في حياة الناس، حيث نشطت له نفوس لبت نداء ربها، فأحياها وجعل لها نوراً تمشي به في الناس وسارت معه قافلة الحياة على هدى ونور، وتفجرت به ينابيع الحكمة، وامتدت به أنهار المعرفة، وعرف به النشاط الفكري طريقه، فسار على منهج واضح، وخطوات مرتبة؛ ووصل الإنسان إلى حد الفاعلية.

وقد ترتبت على ذلك آثار متعددة في المجال الفكري منها التغيير في الثقافة السائدة، والمصطلحات المتداولة، والحضارة والمدنية، والتشريع والأنظمة، واللغة المحلية.

ولكن المنطق يقتضي التعرض للأسباب الداعية إلى تلك الفاعلية، التي اكتسبها الإنسان، قبل بيان تلك الآثار.

وفيما يلي بيان لكل من تلك الأسباب، وآثار هذا القرآن في صور النشاط الفكري:

أولاً: القرآن والأسباب الداعية لفاعلية الإنسان في النشاط الفكري:

الناظر في القرآن الكريم يجد أنه يتضمن الأسباب الرئيسة لفاعلية الإنسان في النشاط الفكري، والقيام بالدور الحضاري المنشود. وتتمثل هذه الأسباب في عدة توجيهات قرآنية وهي:

1- تذكير الإنسان بمركزه في الكون:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:30) فمنذ أن خلق الله تعالى الإنسان: (آدم عليه السلام) وأهبطه إلى الأرض أخبر الملائكة أنه سيكون خليفة الله في الأرض، فأشاروا عليه بعدم فعل ذلك؛ لئلا يفسد في الأرض، ويسفك الدماء. لكن الله تعالى لم يلتفت إلى تلك المشورة، وأنفذ ما قرره، وسلم إلى الإنسان منذ ذلك الوقت زمام هذه الأرض، وأطلق فيها يده، وطالبه بإبراز مشيئة الخالق في الإبداع والتكوين، وكشف ما في هذه الأرض من قوى وطاقات وأسرار، وكنوز وخامات. وزوده للقيام بهذه المشيئة الإلهية والمهمة الضخمة بطاقات واستعدادات وقوى قادرة على تحقيق ذلك. كما أنه تعالى سخَّر للإنسان كل ما تحتويه هذه الأرض من غير الإنسان.

وهذا إن دلَّ على شيء فهو يدل على أن القرآن الكريم لا يقدم الحياة الآخرة بديلاً عن الحياة الدنيا، ولا العكس. وإنما يقدمهما معًا في طريق واحد، وبجهد واحد، ولكنهما لا يجتمعان كذلك في حياة الإنسان إلا إذا اتبع منهج الله وحده في الحياة؛ دون أن يدخل عليه تعديلات مأخوذة من أوضاع أخرى لم تنبثق من منهج الله، أو مأخوذة من تصوراته الذاتية التي لم تضبط بهذا المنهج. ففي هذا المنهج وحده يتم ذلك التناسق الكامل والتصور الإسلامي(1).

(1) انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، 7/ 37.

ويترتب على ذلك أن المسلم يعتبر ما يقوم به من الإبداع الفكري والثقافي والعلمي، والإنتاج المادي والتنمية الاقتصادية مما يؤدي إلى تحسين واقع الحياة المادية؛ مكملاً لما يقوم به من العبادة والإيمان والتقوى.

2- تعريف الإنسان بوظيفته في الحياة:

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ (الذاريات: 56- 58)، هذه الآيات تقرر حقيقة كبرى وضخمة، من أضخم الحقائق الكونية التي لا تستقيم حياة البشر في الأرض بدون إدراكها واستيقانها، وهي تحقيق العبودية لله تعالى في الحياة وهي تتمثل في توحيد تلقي العقائد والعبادات والشرائع والقوانين والقيم والموازين، بحيث تكون من الله تعالى وحده. ويترتب على ذلك حرية المسلم وانطلاقه في الحياة دون قيود وأغلال من: الأهواء والشهوات، والأوهام والخرافات، والأعراف والعادات، والكهنة والطغاة وغير ذلك[1].

3- الدعوة إلى إعمال العقل والنظر والتأمل:

دعا القرآن الكريم في آيات كثيرة إلى إعمال العقل بالنظر والتأمل والتفكير والإدراك، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: 164)، وقوله تعالى:

---

(1) المرجع السابق، 328/1.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف: 184- 185)، والتفكير مطلوب من المسلم على سبيل الوجوب أو الفرض(1)، قال الشافعي، رحمه الله: «استعينوا على الكلام بالصمت، وعلى الاستنباط بالفكرة»(2). وفي آلية التفكير قال ابن القيم: «الفكر هو إحضار معرفتين في القلب؛ ليستثمر منهما معرفة ثالثة. ومثال ذلك: إذا أحضر في قلبه العاجلة (الدنيا) وعيشها ونعيمها، وما يقترن به من الآفات وانقطاعه وزواله، ثم أحضر في قلبه الآخرة ونعيمها، ولذته ودوامه وفضله على نعيم الدنيا وجزم بهذين العلمين؛ أثمر له ذلك علماً ثالثاً، وهو أن الآخرة ونعيمها الفاضل الدائم أولى عند كل عاقل بإيثاره من العاجلة المنقطعة المنغصة»(3).

ويترتب على إعمال الإنسان للعقل بالنظر والتفكير نفض الغبار عن الفطرة الإنسانية، وإيقاظ المشاعر من غفلتها، والبحث عن الحجج والبراهين لما هو مطروح على الإنسان، وعدم الركون إلى **التقليد الأعمى** للآباء والأجداد وغيرهم. قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (المائدة: 104).

4- الدعوة إلى العلم:

(1) انظر: القرضاوي، العقل والعلم في القرآن الكريم، ص13، وما بعدها؛ العقاد، التفكير فريضة إسلامية، ص7، وما بعدها.

(2) ابن القيم، مفتاح دار السعادة، 180/1-181.

(3) المرجع السابق.

قال تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ (العلق 1- 5)، فقد كانت كلمة ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ أول ما نزل من القرآن الكريم، وهي في الحقيقة تعد مفتاح العلم أياً كان نوعه. ولم يقف القرآن عند هذه الكلمة، وإنما رفع من قدر العلم والعلماء، وأعلى من شأنهم، وجعلهم في درجات عليا قريبة من ربهم. قال تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ﴾ (المجادلة: 11)، وقد اعتبر النبي ﷺ طلب العلم فريضة شرعية في قوله: «**طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ**»(1). وجعل العلماء هذه الفريضة على مرتبتين:

الأولى: فرض عين: كتعلم أحكام العقيدة والعبادة على القدر الذي تصح فيه، وتعلم حسن المعاملة، وحدود المنكرات، وتعلم العلوم المسلكية لكل فرد بحسب ما يقوم به: كتعلم أحكام المعاملات المالية التجارية للتاجر، وأحكام الزراعة للمزارع وغير ذلك.

وأما المرتبة الثانية: فهي فرض كفاية: ويندرج تحتها بقية العلوم الأخرى، من الطب والهندسة والكيمياء والكهرباء والذرة والعلوم الصناعية والحربية. وهذا يدل على ضرورة التخصص في هذه العلوم، فإذا لم يوجد متخصصين في المجتمع الإسلامي أثم جميع أفراده.

فالمسلم بحمله العلم يحيا حياة ملؤها الحيوية والحركة والنشاط والاستشراف للمستقبل، ويمشي به في الناس وفق نور القرآن: يهدي الضال،

(1) سنن ابن ماجه، كتاب المقدمة، باب فضل العلم، (224) وهو صحيح.

ويطمئن الخائف، ويحرر المستعبد. قال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ (الأنعام: 122).

5- الدعوة إلى إعمال الحواس للإثبات والتثبت:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (الإسراء:36)، وشبيه بهذه الآية في النهي عن إتباع ما لا علم للإنسان به قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف:33)، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:168- 169)، فلا يقول اللسان كلمة، ولا يروي حادثة، ولا ينقل رواية، ولا يحكم العقل حكماً، ولا يبرم الإنسان أمراً إلا وقد تثبت من كل جزئية، ومن كل ملابسة، ومن كل نتيجة، فلم يبق هنالك شك ولا شبهة في صحتها، بل لا بدَّ أن تكون مستندة إلى دليل يدعمها؛ وبمقدار صحة الدليل وقطعيته تكتسب القضية الصحة والثبوت. قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة:111).

لكن ينبغي ملاحظة أن لكل قضية من القضايا، ولكل دعوى من الدعاوى نوع من الأدلة العلمية يناسبها، فالدعاوى المتعلقة بطبائع الأشياء المادية يستدل عليها بالبراهين التجريبية المحسوسة. وأما الدعاوى المتعلقة بالمجردات فلا يقبل معها إلا براهينها المسلمة، وأما الدعاوى المتعلقة بحقوق

الأفراد والجماعات فلا يقبل فيها إلا الشهادات المثبتة لها؛ وهكذا لا تصبح القضية حقيقة علمية إلا بوجود الدليل المناسب لها. ويترتب على استخدام وسائل البحث والتجريب والتطبيق، والوقوع في الخطأ والصواب بناء شخصية الإنسان وضميره وعقله وتفكيره. ويساعده في ذلك المجتمع الإسلامي الذي يعيش فيه، فهو يهيء له كل الوسائل التي تؤهله للقيام بالنشاط العلمي.

ومما ينبغي التنبيه عليه في هذا الصدد أن هذه التوجيهات لقلب المسلم لم تثمر ثمرتها إلا إذا كان هذا القلب يرتكز على قاعدتين أساسيتين وهما: العقيدة، والأخلاق.

القاعدة الأولى: هي العقيدة الإلهية، التي تقوم على أساس التوحيد والإيمان بالغيب واليوم الآخر. فعقيدة اليوم الآخر تلقي في روع المسلم أنه سيحاسب على كل عمل يقوم به في الآخرة؛ إن كان خيراً فخير، وإن كان شراً فشر. قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (الزلزلة:7،8)، وقال تعالى: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِأَبَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ (الكهف:2- 5)، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ (محمد:35)، فإذا التقت هذه التوجيهات مع تلك العقيدة انقلبت إلى قوة دافعة وطاقة متفجرة تبدع كل ما ينفع الناس في الأرض ويعمل على استقرار حياتهم وتقدمها. إذ أن هذه

العقيدة تربط الإنسان بقوى الكون الظاهرة والخفية، وتمنحه الثقة والطمأنينة، والقدرة على مواجهة الصعاب، بقوة اليقين في التغلب عليها، وقوة الثقة في الله. وتجمع طاقاته وقواه كلها، وتدفعها في اتجاه واحد. وهي تدفع كلاً من الفرد والجماعة إلى التضحية في كل ما يملكون في سبيل الحياة الكبرى التي لا تفنى(1).

وأما القاعدة الثانية: فهي مكارم الأخلاق، التي بعث النبي ﷺ ليتممها، حيث قال ﷺ: «**إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»(2). وهي لم تستمد من البيئة، ولا من العرف، ولا من الاعتبارات الأرضية؛ وإنما تستمد من السماء ومن القرآن والكتب السماوية الصحيحة، والتي قال النبي ﷺ فيها: «**إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلامِ النُّبُوَّةِ الأُولَى إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ**»(3).. كما تستمد من صفات الله تعالى المدونة في القرآن والسنة والمراد تحقيقها في البشر؛ كي يحققوا بها إنسانيتهم العليا.. كما تستمد هذه الأخلاق من سيرة النبي ﷺ؛ لأن الله تعالى وصف أخلاقه بأنها عظيمة، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم:4).. وهذه الأخلاق مستقرة في شعور الإنسان وسلوكه، وفي أعماق ضميره. وهي تجعله أميناً على كل ما يصل إليه من عقائد وتوجيهات وتشريعات ونتائج البحوث والدراسات.

ثانياً: القرآن وصور من النشاط الفكري التي تأثرت به:

(1) انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، 9/7.

(2) البيهقي، السنن الكبرى، 10/ 192.

(3) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب إذا لم تستحي، (6120).

كان للقرآن الكريم آثار واضحة في كثير من صور النشاط الفكري للإنسان،سوف اقتصر منها على المنهج العلمي، والثقافة، والحضارة، والتشريع، واللغة العربية. وفيما يلي بيان ذلك:

1- أثر القرآن في المنهج العلمي:

يعدَّ القرآن الكريم نقلة نوعية في مجال المنهج العلمي، فبعد أن كانت الأمم السابقة تعتمد في تقرير الإيمان بالله على النقل والتقليد للآباء والأجداد جاء القرآن ليبنى الإيمان بالله على النقل والعقل والنظر في الكون ومخلوقات الله البديعة(1). ومن الأدلة على ذلك ما جاء في قصة، إبراهيم عليه السلام، مع قومه في القرآن الكريم حيث قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ٧٦ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ (الأنعام:75- 79)، فقد خلص إبراهيم، عليه السلام، من الدرس بأن هذه العوالم لا تملك من أمرها شيئا،فضلاً عن أن تملكه لغيرها، وأن لها خالقًا، وعلى الناس أن يتوجهوا إليه.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فنجد في القرآن بلورة علمية للمنهج التجريبي، وبالرغم من أن التعلم بالتجربة قديم قدم الإنسان، إلا أن تحول

(1) انظر: أحمد علي الملا، أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوربية، ص200، وما بعدها؛ والدسوقي، منهج البحث في العلوم الإسلامية، ص15، وما بعدها.

التجربة والملاحظة إلى منهج علمي، وإبرازه إلى صوامع العلم جرى في العهد الإسلامي(1)، فبدأ القرآن بإيحاءات له في الآيات التي تتحدث عن العبرة والاعتبار. ففي قوله تعالى: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ (الحشر: 2)، إشارة إلى أنه ينبغي العمل على أساس أن رصد ظاهرة ما لنأخذ منها درساً، أو فكرة. وقال تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ﴾ (يوسف:111)، فعلى الإنسان أن يعيش تجارب الآخرين، حتى يستطيع أن يستنتج من تجاربهم فكراً يمكن أن يتحرك من خلاله لاستنتاج فكر آخر أو لإغناء فكر آخر. وقد أرشد القرآن الكريم إلى هذا المنهج في قصة إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ (البقرة:260).

ولما توسعت العلوم وازدهرت في العالم الإسلامي استعمل العلماء المسلمون المنهج التجريبي، واستخرجوا المجهول من المعلوم، واستنبطوا العلل من المعلولات، ولم يسلموا إلا بما يثبت بالتجربة والترصد. ومن العلماء المسلمين الذين برزوا في هذا المجال واعتمدوا التجربة منهجاً أساسياً في المعرفة؛ جابر بن حيان (ت:200هـ=815م)، والحسن بن الهيثم (ت: نحو430هـ= نحو 1038م).

والحقيقة، يعد هذا المنهج من أفضل مناهج البحث العلمي؛ لأنه يعتمد بالأساس على التجربة العلمية القائمة على قواعد المنهج العلمي، وإدراك

(1) انظر: عبد الكريم بكار، مفاهيم قرآنية في البناء والتنمية، ص97، وما بعدها؛ وقاموس القرآن الكريم، ص80، وما بعدها.

المحسوسات مما يتيح فرصة عملية لاختبار الاستنتاجات للتأكد من تطابقها مع الحقائق الموضوعية، الأمر الذي يقدم أسساً لوضع القوانين عن طريق هذه التجارب. وقد دلت الفطرة على أن إدراك المحسوسات أثبت من إدراك المدلولات البرهانية.

2- أثر القرآن في الثقافة:

كان القرآن الكريم المؤثر الأول في ثقافة الأمة العربية التي نزل فيها، فقد صاغها صياغة جديدة، فغيّر كثيراً من مفاهيمها وطبائعها ومثلها وقيمها وعاداتها وتطلعاتها، بعد أن كانوا يعيشون حياة جاهلية، يسجدون فيها للحجر والشجر والحيوان، وتهضم فيها حقوق الناس، ولا يثاب فيها المحسن على إحسانه ولا يعاقب العاصي على معصيته، وكان الدين فيها سطحياً، ليس له سلطان على أرواحهم ونفوسهم وقلوبهم، ولا تأثير له في أخلاقهم واجتماعهم. كما بيّن ذلك ربعي بن عامر، رضي الله عنه، الذي ذهب إلى لقاء (رستم) بناء على طلب منه، ولما دخل عليه وجد الحرس قد زيَّنوا مجلسه بالنَّمارق المذهَّبة، والزَّرابي الحرير، واليواقيت واللآلىء الثمينة والزينة العظيمة، وقد جلس على سرير من ذهب. ودخل ربعي بثياب صفيقة وسيف وترس وفرس قصيرة، ولم يزل راكبَها حتى داس بها على طرف البساط، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد، وأقبل وعليه سلاحُه ودرعه وبيضتُه على رأسه. فقالوا له: ضع سلاحك. فقال: إني لم آتِكم، وإنّما جئتكم حين دعوتموني، فإما تركتموني هكذا، وإلا رجعت. فقال رستم: إئذنوا له، فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النَّمارق فخرَّق عامتها، فقالوا له: ما جاء بكم؟ فقال: «الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة

اللّه، ومن ضِيق الدنيا إلى سعَتَها، ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه؛ فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفضيَ إلى موعود اللّه، قالوا: وما موعودُ اللّه؟ قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي»[1].

وبهذا استطاع القرآن الكريم بما فيه من تصورات وأخلاق وتشريعات أن يغير ثقافة الجاهلية العربية في بنائها الروحي والخلقي والاجتماعي والسياسي، ويتفوق عليها، لتحل محلها الثقافة الإسلامية الأصيلة التي تقوم على أساس التوحيد والأخلاق الفاضلة، والتورع عن المعاصي والآثام، فترك العرب الشرك، والكذب، والظلم، ووأد البنات، وأكل الربا، والميسر، وشرب الخمر وغير ذلك، وأخذوا بالعقيدة الصحيحة، ومقاصد الشريعة الإسلامية، وأقروا بحقوق الإنسان، ورعاية البيئة وغير ذلك. ولم يقتصر هذا على العرب في الجزيرة العربية، وإنما تعدى ذلك إلى غير العرب من الفرس والروم وغيرهم، حيث تأثروا بثقافة القرآن الكريم.. ومن الشواهد على ذلك تأثّر الأدباء الفرس من الشعراء والكتاب به، فقد كانوا في مختلف المواضيع والأطوار والأساليب الشعرية الفارسية - على مدى التاريخ- يلجأون إلى المفاهيم والتعاليم القرآنية لنقل أفكارهم. وألف الدكتور محمد شهاب العاني كتاباً في أثر القرآن الكريم في الشعر الأندلسي، حيث أثبت فيه حقيقة الأثر القرآني في الشعر الأندلسي وطبيعتها. ومن أقوى الشواهد

(1) الكاندهلوي، حياة الصحابة، 237/1.

على ذلك أن القرآن الكريم استطاع أن يغير ثقافة الغزاة التتار، فدخل كثير منهم في الإسلام[1].

3- أثر القرآن في الحضارة:

الحضارة كلمة جامعة تعنى بنشاط الإنسان في مجال العلوم الطبيعية والفنون والآداب والسياسة والحكم والاقتصاد والاجتماع وغير ذلك. فهي تختلف عن الثقافة التي تعني المعرفة بصفة عامة. أما أثر القرآن الكريم في الحضارة فيظهر من خلال عرض القرآن للحضارات التي اندثرت مثل **حضارة ثمود**، التي قال الله تعالى فيها: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ (الشعراء:146- 152)، **وحضارة سبأ** التي قال الله تعالى فيها: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ (سبأ:15- 17)، **وحضارة الفراعنة** التي قال الله تعالى فيها: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾

(1) انظر: أحمد علي الملا، أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوربية، ص47، وما بعدها.

(القصص:76- 77)، وقد بيّن فيه مقومات وجود الحضارة الصالحة وهي: توافر الناحية المادية من بيئة صالحة، واقتصاد قوي، ووجود نظام سياسي، ووجود الناحية المعنوية من إيمان بالله، وأخلاق فاضلة، وقيم معتدلة. كما بيّن فيه أسباب اندثار الحضارات من طغيان الجانب المادي، والغرور الفكري والمادي، والظلم للناس، وفساد نظام الحكم وغير ذلك[1].

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، وإنما أسهمت الحضارة الإسلامية في تقدم البلاد المفتوحة، وعملت على جعلها مشاعل نور تحمل العلم والمدنية، ويؤمها رواد العلم والتحضر. ومن هذه البلاد: الأندلس، التي كانت قبل الفتح الإسلامي لها تعيش في ظلام دامس وجهل مطبق، ومما يؤيد ذلك ما ذكره الرحالة الأندلسي إبراهيم بن يعقوب الطرطوشي، في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) في وصف الجلالقة الذين كانوا يسكنون شمال أسبانيا بأنهم:

«أهل غدر، ودناءة أخلاق، لا يتنظفون ولا يغتسلون في العام إلا مرة أو مرتين بالماء البارد. ولا يغسلون ثيابهم منذ يلبسونها إلى أن تتقطع عليهم، ويزعمون أن الوسخ الذي يعلوها من عرقهم تَنعُم به أجسامهم وتصح أبدانهم، وثيابهم أضيق الثياب وهي مفرجة يبدو من تفاريجها أكثر أبدانهم..»[2].

أما بعد الفتح الإسلامي للأندلس فقد ظلت بقية أوربا تزخر بالجهل والأمية والحرمان، بينما أصبحت الأندلس تحمل إمامة العلم وراية الثقافة.

---

(1) عبد الحكم الصعيدي، حضارات ورد ذكرها في القرآن الكريم والسنة النبوية، ص31 وما بعدها.

(2) عبد الرحمن الحجي، الحضارة الإسلامية في الأندلس، ص 30.

ومما يدل على ذلك ما قاله المستشرق الهولندي «دوزي» (ت: 1884م) في وصف البلاد الأوربية: «إن في كل الأندلس لم يكن يوجد رجل أمي، بينما لم يكن يعرف القراءة والكتابة في أوربا معرفة أولية إلا الطبقة العليا من القُسس»[1].

وقد ازدهرت العلوم في جامعات الأندلس في كل من قرطبة وأشبيلية، ومالقة وغرناطة كما ازدهرت في غيرها من البلاد الإسلامية، وكان التعليم في الأندلس شاملاً لكل أنواع المعرفة من الرياضيات، والفيزياء، والكيمياء، والعمارة والهندسة، والصناعة، والفلك، والطب، والصيدلة، والزراعة وعلم النبات. وقد أصبحت جامعات الأندلس منارة لطلاب العلم، حيث يفدون إليها من كل أنحاء أوربا حتى بلغوا عدة آلاف، وكان من بين هؤلاء الطلاب الراهب الفرنسي «جربرت» الذي تقلد منصب البابوية في الفاتيكان تحت اسم «سلفستر الثاني»، حيث قضى ثلاث سنوات في جامعات الأندلس يدرس على أيدي العلماء المسلمين الرياضيات، والكيمياء، والفلك وموضوعات أخرى، وحينما عاد إلى وطنه بعد أن بلغ من العلم مبلغاً خيل لعامة فرنسا إذ ذاك أنه ساحر. ومن الأندلس انتقلت الحضارة الإسلامية إلى باقي الدول الأوربية[2].

4- أثر القرآن في التشريع:

التشريع مصدر شرَّع كالشرع مصدر شرَع، المراد به: وضع أحكام للناس ليعملوا بها، ولتطبق على ما يصدر عنهم، فإن كان واضع هذه

(1) المرجع السابق.

(2) المرجع السابق؛ وخالد العبيدي، القرآن منهل العلوم، ص51 وما بعدها.

الأحكام هو الله تعالى سمي شرعاً أو تشريعاً إلهياً، وإن كان الواضع لها الناس سمي شرعاً أو تشريعاً وضعياً. والأحكام التي جاءت في القرآن الكريم تتنوع إلى أربعة أنواع وهي: العقائد، والعبادات، والأخلاق، والمعاملات. والنوع الأخير هو ما يتعلق بالارتباطات التعاملية بين الأفراد والجماعات، وهو الذي يطلق عليه التشريع، وهو يقابل القوانين الوضعية على اختلاف أنواعها. وقد جاء القرآن الكريم في مجال التشريع بعدة مباديء أساسية كان لها تأثير واضح في التشريعات اللاحقة، ومن ذلك:

أ- جاء القرآن الكريم بمنهج للتشريع يتضمن الرد إلى النصوص، وبالقياس والاجتهاد فيما لا نص فيه. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ (النساء:59)، فهي تقتضي رد المتنازع فيه من قضايا التشريع إلى نصوص القرآن والسنة التي تنطبق عليه ضمناً. فإن لم توجد النصوص التي تنطبق على هذا النحو، فيرد إلى المبادئ الكلية العامة الموجودة في الكتاب والسنة. وهي تغطي كل جوانب الحياة الأساسية(1).

ب- القرآن في تشريعه يقرر المساواة بين الناس، فلا محاباة فيه لفرد، ولا لطبقة، ولا لشعب، ولا لجنس، ولا لجيل من البشر على جيل؛ لأن واضعه هو الله رب الجميع، الذي على مسافة واحدة من جميع الناس. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ

(1) انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، 2/ 164.

عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ (الحجرات:13)، وهو بذلك يختلف عن القانون الروماني الذي يقرر أن للرومان دون غيرهم الحقوق، أما الواجبات فتكون على جميع السكان.

ج- تشريع القرآن يسوي في أحكامه الإنسانية بين الرجل والمرأة، إلا ما يوجبه النظام الاجتماعي من تفرقة جزئية؛ ليست بكلية. فهو يعترف بالشخصية الإنسانية الكاملة للمرأة، ولها ذمة مستقلة عن والدها أو زوجها. قال تعالى: ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ١٢٣ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا﴾ (النساء:123-124)، وهو بذلك يختلف عن القانون الروماني الذي لا يعترف للمرأة بالشخصية الكاملة ولا بالشخصية الناقصة، فهي أَمَة في بيت أبيها، ثم تصير أمة في بيت زوجها.

د- تشريع القرآن يبيح البيع ويحرم الربا. قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾(البقرة:275).

هـ- تشريع القرآن يعترف بالولاية الكاملة لكل من بلغ الرشد، وكمل عقله. قال تعالى: ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا﴾

(النساء:6)، في حين أن القانون الروماني لا يعترف للرجل بالولاية ما دام أبوه على قيد الحياة؛ إلا إذا منحه أبوه الولاية.

و- تشريع القرآن جاء بتوزيع عادل لتركة المتوفى، وهو ينسجم مع الفطرة الإنسانية، ويحقق تفتيت الثروة بين قرابة المتوفى جميعهم، دون حصرها في بعضهم. قال تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ (النساء:11)، وهو بذلك يختلف عن القوانين اليونانية التي تجعل التركة للابن الأكبر فقط.

5- أثر القرآن في اللغة العربية:

إن اللغة العربية هي أقدم اللغات على الإطلاق، كما رجحت الدراسات الحديثة، وأنها اللغة التي علّم الله بها آدم الأسماء كلها، وهي لغة أهل الجنة؛ كما رُوي عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال : قال رسول الله ﷺ: «**أحبوا العرب لثلاث: لأني عربي، والقرآن عربي، وكلام أهل الجنة عربي**»(1).

(1) الحاكم، المستدرك على الصحيحين مع تعليقات الذهبي في التلخيص،6 /44.

وقد كان للقرآن الكريم آثار كثيرة في اللغة العربية، نذكر من أهمها[1]:

أ- خلود اللغة العربية والمحافظة عليها من الضياع، حيث اكتسبت الخلود والبقاء من خلود القرآن؛ فكل عدوان على اللغة العربية يعتبر عدواناً على القرآن. وقد تكفل الله بحفظه، وهيأ له العامة والخاصة من العلماء للتصدي لكل المؤثرات التي تحاك ضد اللغة باعتبارها لغة القرآن، يدافعون عنها، ويذودون عن حياضها، ولذلك فإن بقاء اللغة العربية إلى اليوم وإلى ما شاء الله راجع إلى الدفاع عن القرآن.

ب- القرآن عمل على تقوية اللغة والرقي بها نحو الكمال؛ عن طريق إضافة المعاني الفياضة، والألفاظ المتطورة، والتراكيب الجديدة، والأساليب العالية الرفيعة، فأصبحت بذلك محط جميع الأنظار، والاقتباس منها، وغدت هذه اللغة تتألق وتتباهى على غيرها من اللغات بما حازت عليه من محاسن الجمال وأنواع الكمال، وفي هذا يقول الرافعي، رحمه الله: «نزل القرآن الكريم بهذه اللغة على نمط يعجز قليله وكثيره معاً، فكان أشبه شيء بالنور في جملة نسقه، إذ النور جملة واحدة، وإنما يتجزأ باعتبار لا يخرجه من طبيعته، وهو في كل جزء من أجزائه جملة لا يعارض بشيء إلا إذا خلقت سماء غير السماء، وبدلت الأرض غير الأرض».

(1) انظر: أحمد حسن الباقوري، أثر القرآن في اللغة العربية، ص 28، وما بعدها.

وقال المستشرق «جورج سارنوت»: «ولغة القرآن على اعتبار أنها لغة العرب كانت بهذا التجديد كاملة، وقد وهبها الرسول ﷺ مرونة جعلتها قادرة على أن تدون الوحي الإلهي أحسن تدوين بجميع دقائق معانيه ولغاته، وأن يعبر عنه بعبارات عليها طلاوة وفيها متانة، وهكذا يساعد القرآن على رفع اللغة العربية إلى مقام المثل الأعلى في التعبير عن المقاصد».

وقال «بروكلمان»: «بفضل القرآن بلغت العربية من الاتساع مدى لا تكاد تعرفه أي لغة أخرى من لغات الدنيا».

ج- القرآن عمل على توحيد لهجات اللغة العربية وتخليصها من اللهجات القبلية الكثيرة، فقد اقتصر نزول القرآن على سبعة أحرف (لهجات) وعندما قام عثمان، رضي الله عنه، بجمع القرآن رُوعيت في أغلبه لغة قريش؛ وذلك لأنها أسهل اللغات وأعذبها وأوضحها وأبينها، وكانت تحتوي على أكثر لغات العرب، وقد أدى إقبال المسلمين على تلاوة القرآن بلغة قريش إلى توحيد هذه اللغة واللسان.

د- القرآن عمل على تحويل اللغة العربية إلى لغة عالمية، فبعد أن كانت اللغة العربية لغة محلية، لا يتعلمها غير العرب؛ لأنه لم يكن للعرب قبل نزول القرآن شأن يذكر في مجال الحضارة أو الصناعة. وقد ظلت اللغة العربية كذلك، حتى جاء القرآن الكريم، فحمل المسلمون الدعوة الإسلامية إلى غير العرب، فدخل الناس في دين الله أفواجاً، وكان أول ما يجب على من يدخل في الإسلام هو تعلم اللغة العربية لإقامة دينه، وتصحيح عبادته، فأقبل الناس في جميع البلاد المفتوحة في العالم على تعلم اللغة العربية،

ووجدت فيها مراكز علمية لتعليمها، حتى برز فيها علماء متخصصون من غير العرب.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.